

القسم الثانى

١ - مؤتمر (أم القرى)

حين يتوجه ضيوف الرحمن - لرمى الجمرات ، يكون الواقع العربى والإسلامى حولنا يحتاج إلى رمى جمرات أخرى ضد الواقع العربى المتردى ، حيث يسعى القادة العرب الآن لإنجاح العمل العربى المشترك فى مؤتمرات قمة معاصرة . . لا تنتهى . .

وإذا كان ضيوف الرحمن يصعدون إلى منى أو يهبطون إلى مكة ، فإن هذا يذكرنا بما دعا إليه عبد الرحمن الكواكبي منذ قرن أو يزيد فى كتابه (أم القرى) ؛ فقد انتظر الكواكبي يوماً أو اثنين على ذلك ليدعو داخل كتابه إلى طريقة - مستفيداً من الجمع الكبير - لرمى الجمرات التى تحت على العمل العربى المشترك ؛ وهو ما يلتقى معه - بشكل أو بآخر - بسعى قادتنا إلى مؤتمر قمة لمواجهة هذه الأخطار الشيطانية فى مواجهتها . فلنترك ضيوف الرحمن يلقون بجمراتهم الآن ، ونقترب أكثر لما دعى إليه الكواكبي .

ربما كان كتاب (أم القرى) هو أول من دعا إلى (جمعية) تقترب فى شكلها العام من مؤتمر القمة ، الذى يقام الآن ، وفى أول صفحة نقرأ تحت عنوان الكتاب هذه العبارة (وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية) .

معنى هذا إن أول ما يطرأ على الذهن عند المضى مع الصفحات الأولى إن الكواكبي كان يسعى للخلاص من الحاضر السىء فى نهاية القرن التاسع عشر بالتنظيم السياسى ، الذى أطلق عليه فى أول الكتاب (مؤتمر) ثم راح عبر صفحات الكتاب يشير إليه بهذا التجمع أو (الجمعية) . .

وكل هذا ، ولم يغادر الهدف الذى سعى إليه من ضرورة التكاثر من أجل مواجهة العدو الشرس الوقح أمامنا ومن هنا ، فنحن أمام عدة اجتماعات (الأول منها يبدأ فى ١٥ ذى الحجة وينتهى فى ٢٤ ذى الحجة) ومن ثم ، فنحن أمام (وثيقة) تقول إننا لن يقدر لنا الحياة اليوم إلا بمؤتمر قمة (رمز للقومية العربية) يكون قادراً على التوجه إلى الغرب (بكتلة) واحدة متجانسة ، ومواجهة الغرب (بقلب واحد) .

ويدهى أن الكواكبي لم يكن ليقدم على هذا لولا ما راعه من فقدان روح العمل المشترك ، ومن ثم ، فإن دعوته هنا انصبّت على هذا المكان الوحيد فى العالم ، الذى يجتمع فيه كل هذا الجمع العربى / الإسلامى (لأداء فريضة الحج) ، وهو شكل يمكن أن نلاحظه يتكرر بشكل مجازى فى مواضيع أخرى كثيرة سواء الاجتماع لصلاة الجماعة أو الجمعة وجمعية الحج . . وما إلى ذلك . .

كما أنه لم يكن ليقدم على هذا لولا ما أفزعه من سيادة روح الفتور ، شخصاً الحاضر بأن السبب هو (. . فقدان الاجتماعات والمفاوضات ، وذلك أن المسلمين فى القرون الأخيرة قد نسوا بالكلية « حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج » ، وترك خطباؤهم ووعاظهم ، - « خوفاً من أهل السياسة » - التعرض للشئون العامة ، كما إن علماءهم صاروا يسترون جنبهم باعتبار التحدث فى الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يغنى . .) .

قضايا الأمة العربية العامة والملحة :

وحديث العلماء نرجئه - لخطورته - إلى موضع آخر .

فهل يختلف هذا الماضى منذ قرن عن الحاضر بعد قرن ؛ حيث نعيش الآن . .

ورغم أنه غلبت على دعوة الكواكبي مسحة من السرية التى كنا نعرفها فى القرون السابقة ، فإن دعوته واجتماعاته المتوالية طيلة شهر الحج إنما كانت تدفع دفعاً عليّاً عبر كتابه المنشور إلى نفى الفتور ، وتحدى سريان الحمول فى الأمة العربية . .

ورغم أن القراءة السريعة لكتاب (أم القرى) والإشارة إلى المندوبين من البلاد الإسلامية تشير إلى أن الكواكبي كان يدعو إلى دولة دينية ، فإن القراءة الواعية - على

العكس من ذلك - ترينا أن الوعي العربى كان أول ما يلفت النظر من الوعي العقيدى ، بل إن الوعي العربى يمثل خطوة سابقة للوعي العقيدى ، فيما بعد ، وهذا يعنى أن حديث (أم القرى) إنما كان حديث مثقف واعياً أشد الوعي بالأخطار التى تمر بها المنطقة العربية ، ومن ثم ، فإن ترتيب وضع الأسماء حسب حضورهم فى هذا المؤتمر كان يشير إلى أن الأقطار العربية ، إنما كانت تمثل كتلة مركزية فى الدائرة الإسلامية الأوسع ، ويلاحظ البعض هنا أن الترتيب الذى جاء فى كتابه قدم المندوبين الذين يمثلون أجزاء العالم العربى من المحيط إلى الخليج على المندوبين ، الذين يمثلون شعوباً مسلمة غير عربية ، أو أقليات مسلمة فى بلاد غير إسلامية .

وهو ما يشير تقدم فكرة العروبة وإيثارها فى هذا الموضع .

وحتى حين كان يذكر لفظة (المسلمين) ، كان يقصد بها فى المقام الأول لفظة (العرب) ، أو كان - بشكل أدق يقصد الحضور العربى - أكثر منه فى الإطار العام .

إننا فى الاجتماع الثانى عشر (يوم الاثنين والعشرين من ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ) نجد أن قانون الجمعية لتعليم الموحدين يحتوى على مقدمة ؛ يشير فيها إلى أن المسلمين فى حالة فتور عام ، ولا يلبث بعد عدة نتائج أن يكتب بشكل أكثر تحديداً ووعياً بالفكرة العربية هذه النتيجة :

(- الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة فى العرب خاصة)

ويشير هنا محمد عمارة إلى أن الكواكبى ، رغم نزعته الإنسانية والإسلامية ، قد كان من أبرز الذين وضعوا بذور الفكر القومى العربى فى عصرنا الحديث ، وهو قد أبصر نذر الغروب لفكر الخلافة الإسلامية غير العربية ، وبداية النهاية لسلطان العثمانيين ، وكذلك الزحف الإمبريالى الغربى على بلاد المسلمين ، ولم يجد خلاصاً للعرب والمسلمين من كل ذلك إلا فى « خلافة عربية » هى التعبير عن إيمانه بالدور القيادى للعرب وحضارتهم فى مهمة النهضة بالشرق .

وهو ما يبدو أكثر وضوحاً فى ترتيب الحضور للجمعية أو (المؤتمر) .

إن الحضور - حسب ترتيب الكواكبي - كان يبدأ هكذا من (حلب والشام وفلسطين ومصر واليمن والعراق ونجد والمدينة ومكة وتونس ومراكش) ، ثم تأتي بعدها الأقليات التي تأتي من كردستان أو الهند ثم فارس) . . إلخ ، كما أننا نلاحظ في (اللاحقة) ، التي يضيفها الكواكبي في نهاية الاجتماعات استخدام ألفاظ وعبارات لها دلالة كبيرة في إثارة الفكرة العربية في هذا التجمع ، فهو يكتب أنه في ختام إحدى الجلسات ، وقف البعض ليشير إلى :

- إقامة خليفة عربى .

- الخلافة العربية .

- وظائف الشورى العربية .

كما أن تريد عبارات من مثل (أليس التُّرك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبثُ به الأهواء ، ولا مرجع . .) يعقب عبارة (إن الغيرة على الدين وأهله والاستعداد لتجديد عزِّ الإسلام منحصران . . فى العرب) .

وفى موضع آخر يضيف :

- إن العرب من المسلمين أقرب من غيرهم للألفة وحُسن المعاملة والثبات على العهد ، وهو ما يشير - فى السياق الأخير - إلى التجمع العربى الذى يتحالف (ككتلة عربية) مع التجمع الإسلامى أو يتعاظم معه .

كانت الفكرة العربية من الوضوح ؛ بحيث كان من الصعب أن يفهم فيه شيئاً مغايراً .

وهذا - كما أشرنا - أقرب الآن إلى مؤتمر القمة العربى الذى يدعى إليه الآن كلما واجهتنا الأزمات ، وكنا فى أشد الحاجة إلى التضامن لمواجهة العدو الذى يحيط بنا من كل جانب ؛ ومن تلفت حوله اليوم يجد جملة من هذه المخاطر ، نحن أحوج فيها إلى روح الأفغانى التى تجسد - إلى حد كبير - فى مؤتمرات القمة العربية ، التى تعقد منذ سنوات بعيدة .

لقد تعثرت المفاوضات على المسار الفلسطيني لتعنت الصهاينة وعنصريتهم ، وجاء زعيم الليكود ذو الوجه القبيح والمواقف العدوانية العدائية تجاهنا ، ومازالت الإدارة الأمريكية الجديدة تتحفظ فى مواقفها ، وهى أقرب إلى الجانب المضاد أكثر من كونها (وسيطاً) محايداً .

كذلك ، فإن المسألة العراقية مازالت تفرض - فى التطورات الخطيرة والقذف التى تتعرض له أزمة خطيرة أضف إلى هذا إن مهزلة (لوكيرى) لم تنته بانتهاء إعلان الأحكام الأخيرة ، كما إن الدعوات العنصرية مازالت تعلو داخل إسرائيل ، سواء من أحزاب العمل أو الليكود أو العناصر الدينية المتعصبة ، فضلاً عن الأخطار التى نواجهها على المستوى الاقتصادى العربى خاصة فى عصر (العولمة) حيث مازالت - داخل أقطارنا - يعوزها الكثير من الحكمة والوعى لإحكام عقولنا لقيام (السوق العربية المشتركة) إزاء سياسة (اقتصاد السوق) ، فكأننا مازلنا أقطاراً عديدة بسياسات اقتصادية عديدة أمام عدو واحد مازال يملك أدواته الاقتصادية .

أضف إلى هذا كله التفوق التكنولوجى الرقمى الكبير فى الجانب الآخر ، وهو ما نردده كل مرة ، ولن نخل من ترديده فى كل مرة .

هذا وغيره ما يدفعنا اليوم للتنبه - أكثر - إلى ضرورة التضامن العربى .

التضامن العربى لرمى الجمرات فى وجه الشيطان الأكبر أو أعوانه الكثيرين . .

* * *

obeikandi.com

٢ - البحث عن العلماء

أفضنا - المرة السابقة - فى دلالة توجه ضيوف الرحمن لرمى الجمرات . . .

وأضفنا إلى رمى الجمرات معنى آخر وجدناه ظاهراً أكثر ما يكون الظهور فى كتاب عبد الرحمن الكواكبي (أم القرى) ، حين خرج من دياره (إحدى مدن الفرات) قبل قرن من الزمان ١٣١٦ (١٨٩٨) لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج - على حد قوله - ومن ثم ، فإن الاجتماع الذى كان قد دعا إليه السيد الفراتي (الاسم السرى الذى اختاره) بدا كأنه هو الاجتماع الذى يجب أن ندعو إليه بعد كل هذا الزمان .

ولأن المسئولية فى هذا - قبل قرن أو بعده - تقع على الأمراء والعلماء ، فإن التمهّل أكثر عند الآخرين - العلماء - هنا أول ما يشغلنا فى تفسير سبب الخلل الذى نعيش فيه ، خاصة ، أننا نعيش فى زمن تتزايد فيه الأخطار الأجنبية . .

وكلما زاد الخطر الأجنبى زادت حاجتنا إلى البحث عن أسبابه المباشرة ، ومن هنا نتوقف داخل (أم القرى) وخارجها عند الخطر الداخلى فلتمهّل - قليلاً - للبحث عن العلماء والمثقفين .

كان الهدف الرئيس الذى يجب البحث عنه هو مدى الضعف والتخلف ، الذى نحن فيه ، أو بلغة السيد الفراتي (الفتور العام) الذى لحق بنا ، وبدا أن أهم أسباب الفتور تقع على العلماء ، علماء هذه الأمة بتعريفاتها وتطور أنماطها فى القرنين الآخرين حتى اليوم ؛ وهو يردد من آن لآخر أسباب الفتور ، وهو يتلخص إما فى «ترك الحرية» وإما «ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ، وفى موضع آخر «فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية» . . وما إلى ذلك ، ومن ثم ، تداعى أنماطه أو أصنافه ، سواء لدى العامة أو لدى الخاصة .

إننا نقع هنا على عدد كبير من أنماط العلماء .

وتتعدد هذه الأنماط وتتحدد في زمننا في غمط واحد ، هو النمط المؤيد ، هذا النمط المؤيد في مواجهة السلطة نجده يتفرع إلى أنماط كثيرة ، يعثر عليها السيد الفراتي في كل (اجتماع) يحضره مع إخوانه . .

إن المثقف المؤيد للنظام يتمثل في أصناف كثيرة ، فنحن نجده ، كلما زاد الحال عتياً وتضييقاً ، نسأل فنجد أنفسنا بين صنفين ، نجدهم على هذا النحو :

- إما جنباء يهابون الخوض فيه .

- أو مرءون مداحون يأبون أن تخالف أقوالهم أحوالهم .

وهؤلاء هم الذين يسمعون إلى أن يبقى الحال على ما هو عليه ، لا يتحدثون عن سلبات ، أو يأخذون على يد الظالمين ، وإنما هم محتاطون لأنفسهم ، فلا يقبلون على الإصلاح ، ولا يترددون في أن يداهنوا ويؤكدوا حسن الحال وما إلى ذلك .

(ونسأل أنفسنا هنا : ألا نعرف هؤلاء في زمننا ؟) .

وحين نبدأ البحث عن سبب تشوش الدين والدنيا على العامة ، فنحن أمام صنف ثالث ، يصفه السيد الفراتي فيراه في :

- هؤلاء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيعوه ، وضعوا أهله ؛ وذلك أن الدين إنما يعرف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قيامهم في الأمة مقام الأنبياء في الهداية إلى خير الدنيا والآخرة . .

(ونعود للسؤال : ألا نعرف هؤلاء في زمننا ؟) .

ورغم إن كثيراً من الحاضرين يسهبون كثيراً حول هذا النمط الأخير من العلماء (المدلسين) سواء في خداع العامة بالأقوال المنسوبة إلى العقيدة أو وضع الأحاديث المكذوبة أو فعل أى شئ لينالوا (نفوذاً عظيماً) . . فإنه ينصرف في الاجتماع الثالث إلى غمط ثالث من هؤلاء يسميهم (الجهلة المعممين) .

فمن هم الجهلة المعممين ، يجيب هنا البعض بالحرف الواحد :

- هم المقربون من الأمراء على أنهم علماء ، وارتباط القضاء بهم . .

وبعد أن يسهب عن وجودهم فى أكثر من مكان فى هذا العالم الإسلامى الرحيب ، يعيد تحديد صفاتهم من علامات إفساد العلم وإفساد السلطان وما إلى ذلك ، يقول :

(لا ريب أن التعيين فى المائة من العلماء المتبحرين لا يحنون قراءة نعوتهم المزورة ، كما أن الحمسة والتعين من هؤلاء المتورعين ، رافعى أعلام الشريعة والدين ، يحاربون الله جهاراً ، ويستحقون ما يستحقونه من الله وملائكته . .) .

وقد يكون من المهم أن نتمهل قليلاً عند الأخذ بالحجة عليهم من تمييزهم جميعاً بلباس عروس ، محلى بكثير من الفضة والذهب ، مما هو حرام بالإجماع ، ولا يحتمل التأويل (وهى « التشريفة » المزركشة) .

وهنا نفتح قوساً كبيراً لنقول فيه إنها التى رفض جمال الدين الأفغانى ارتداءها ، عندما أهداها له السلطان عبد الحميد قائلاً للرسول الذى حملها إليه ، اذهب وقل للسلطان ، إن جمال الدين يريد أن يكون جمال الدين ، ولا يريد أن يكون كالبغل المزركش !! (وهو ما نجده فى الكتاب الذى أخرجه محمد عمارة عن أعمال الكواكبي) .

(وهو ما يعود بنا ثالثة إلى السؤال : ألا نعرف هذا البغل المزركش فى زمننا ؟) .
ثم أن هناك نمطاً آخر من العلماء الذين أشار إليهم الكواكبي نجدهم فى العصر العثمانى كما نجدهم فى عصر الكواكبي (القرنين الماضيين) بالشكل الذى نجدهم كذلك فى عصر العولمة ، وهو النمط الذى يمكن أن نطلق عليهم :
- العلماء الجاهلون .

فحين يستطرد أحد الحاضرين عن سبب الفتور ، يرى أن :

(السبب العام هو أن علماءنا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات ، وأهملوا بقية العلوم الرياضية والطبيعية ، التى كانت إذ ذاك ليست بذات بال ولا تفيد سوى الجمال والكمال) وهو ما يقترب بنا من نمط آخر شاع هذه السنوات من المثقفين ،

الذين يشغلون بأنفسهم عن غيرهم ، أن سبب الفتور والضعف هو غط المنافقين ، وهو غط يصف هؤلاء الذين يملقون السلطان وينافقونه ، ونجد أنفسنا أمام سؤال واحد :

- فماذا يرجى من علماء يشتركون بدينهم دنياهم ، ويقبلون يد الأمير لتقبل العامة أيديهم ، ويحقرون أنفسهم للعظماء ؛ ليتعاضموا على ألفة من الضعفاء ، أكبر همهم التحاسد والتباغض والتخاذل والتفاشل ، لا يحسنون أمراً من الأمور حتى ولا الخصومة ، فتراهم لا يترامون إلا بتكفير بعضهم بعضاً عند الأمراء والعامة .
(ونكاد نقفز هنا لنشير بالسبابة : ألسنا نعرف هؤلاء أيضاً الآن) .

وتتوالى اجتماعات (أم القرى) ، وتتتابع أماننا أنماط المثقفين أو العلماء الفاسدين :

- فهؤلاء لم يرضوا بالشرع المبين ، فابتدعوا أحكاماً سموها علم الباطن ، أو علم الحقيقة ، أو علم التصوف . .

- وهؤلاء انتزعوا بعض المزيادات من مشكلات الأحاديث والآثار .

- ومنهم من اخترع عبادات وقراءات لم يأت بها الإسلام .

- ومنهم جماعة اتخذوا دين الله لهواً ولعباً .

- ومنهم جماعة تعتبر البلادة سلاحاً ، والخمول خيراً ، والخبيل خشوعاً ، والصراع وصولاً .

- ومنهم من يطلع في الكتاب أو السنة على أمر أو نهى فيتلقاه على أمره ومنهم . . (وهنا نسأل بشكل مكرر ممل : ألسنا نعرف كل هؤلاء الآن) .

وهل دار الزمن دورته حقاً أو عدة قرون أم مازلنا في العصور العثمانية أو المملوكية أو . . إلخ .

بيد أننا لا نستطيع أن نترك هذا كله دون أن نسأل : وأين ، إذًا ، المثقف الواعى . . المتمرد ؟

وهنا يجب أن نسارع ، إنه فى مواجهة هذه الأنماط السلبية فإن الأمر لا يخلو - قط - من أنماط أخرى إيجابية ، غير أنه من المعروف أننا فى أزمنة الضعف نجد الأنماط الأولى أكثر وأوفر ، وبالعكس ، فإن الأنماط الإيجابية تمثل النزر اليسير .

والأمر المؤكد هنا أن المثقف الإيجابى المتمرد هو نمط موجود ، لكنه يمثل - دائماً - واحد بين أنماط سلبية كثيرة ، يظل فى معية السلطان يتعامل بحذر وتؤدة ، أو يظل من هامش الحياة لينظر من بعيد بأسى وحزن .

وإلا ، فمن يقل لنا من صاحب هذا الكتاب / الجمعية ، إنه أحد المثقفين (=العلماء) المتمردين فى زمنه على كل أسباب الفتور ، وكل دواعى الضعف ، وكل عوامل الإخفاق . . إنه عبد الرحمن الكواكبي .

* * *

٣ - شاهد عيان

كنت قد أشرت هنا إلى سعى ضيوف الرحمن ، من شتى أنحاء العالم ، إلى رمى الجمرات بعد طلوع شمس الثامن من ذى الحجة فى بطن وادى منى . .

وأشرت أيضاً إلى الخاطر الذى كان قد صرح به عبد الرحمن الكواكبي فى كتابه (أم القرى) قبل قرن أو يزيد ، من ضرورة الإفادة من هذا التجمع الكبير من المسلمين ، ومن شتى أنحاء العالم لعقد مؤتمر أو (جمعية) لبحث عن عوامل فتور العرب والمسلمين فى هذا الزمن الغربى ، حيث عددنا الهائل ، وحيث واقعنا الضئيل ، وحيث يتردد إلى الوقوف أمام الله عز وجل الآلاف - وقد أصبحوا هذا العام بالملايين - وحيث إن نظرة عجل على خارطة العالم تشير إلى أن هذا الجمع الضخم يعانى من البؤس والتفرق والتخلف والشتات بشكل ، لم يسبق له مثيل فى تاريخ المنطقة التى نعيش فيها اليوم .

بيد أننى سأترك هذا الجمع الحاشد عند الكواكبي مؤقتاً ، وأصعد خارجه ، حيث قدر لى أن أشهد تجمع كل هؤلاء البشر ، وما أثاره فى كشاهد عيان خاصة لما يحدث لنا جميعاً فى هذا الزمن الغربى الرديء .

إنها شهادة (عيان) لما يمر به عالمنا الإسلامى والعربى فى هذا الزمن الغربى ؛ فلنبق عند مكة حتى العود إليها ثانية بعد مشقة الطريق ورفقة الشعوب التى جاءت من (كل فج عميق) .

* * *

لا يستطيع مؤدى الفريضة أن يشارك فى شعائرها دون أن تلفت نظره أكثر من ظاهرة .

- نحن أمام أعداد هائلة غاضبة ، كانت فى الكتابات القديمة سواء العربية منها التى تصف رحلات الحج أو تتحدث عنها ، تُعدّ بالآلاف ، غير أنها الآن تصل إلى الملايين وتجاوزها .

كانت الأعداد عند كتب التراث والرحلات قبل ذلك تشير إلى أعداد غير كبيرة ، فى حين أنها لم تزد عند ياقوت الحموى فى القرن الثالث عشر الميلادى أو ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر أكثر من عدة آلاف .

كما أنها لم تزد كثيراً عند الغربيين من أمثال جوزيف بتس فى القرن السابع عشر ، أو بيرتون فى القرن التاسع عشر عن مثل هذه الآلاف ، التى كانت تأتى فى مناخ مغاير ، وإن يكن بهدف واحد ، فى حين أنها فى القرن الواحد والعشرين - هذا العام - زادت عن ثلاثة ملايين بالإحصاء الرسمى . ومن ثمّ ، فإنّ كثافة هذا التجمع الضخم تشير إلى أمر مهم فى هذه الحقبة الصعبة التى نعيش فيها . .

إنّ عالماً الذى نعرفه الآن يغلب على جانب كبير منه - المرتبط بالعقيدة الإسلامية - الهدف الواحد فى الذهاب إلى مكة لأداء المشاعر ، وفى كل منهم - دافع يكاد أن يكون واحداً - هو التمزق الداخلى لدى كل فرد ، والتمزق الملتهب لدى الجمع الكبير . .

الملاحظ أنّه مع زيادة الأعداد الهائلة للديار المقدسة ، زادت معها هموم العرب والمسلمين إزاء التحدى الغربى من جهة والتخلف الداخلى من جهة أخرى .

تصادف وأنا أعود فى إحدى مرات الإقامة على عرفات إلى الخيمة التى سكنت إليها . . تصادف أننى ضللت طريق العودة ، فإذا أنا فى موضع آخر ، وبين جمع ضخم يقيم صلاة الظهر ، وكان علىّ أن أتوقف بسرعة فى الصف لإكمال صلاة (الجماعة) ، وكان علىّ أن أشهد فى آخر قيام هذه الصلاة إنّ من يؤم هذا العدد الضخم - وهو من لكتته ينتمى إلى بعض الأقطار الإسلامية بجنوب شرق آسيا - إن هذا الإمام أخذ يدعو فى ألم شديد إلى من يقيم الأمة من عثرتها ، ثم راح يطوف ببلاد الشيشان والكوسوفو ومضطهدى الصين والهند وبورما والمذابح التى تقام هنا وهناك للمسلمين وصولاً إلى فلسطين . .

ولم يكن من الصعب أن ألاحظ في هذا كله ، أنه في كل مرة يتهدد صوته ، وتعلو النبرة المشوبة بالبكاء كان المصلون وراءه يرفعون أيديهم بشدة ، ويذهب بعضهم في (حالة) من الشجن الصوفي أو الحزن لما يحدث في عالمنا العربى أو الإسلامى فيصيح (آمين) .

ومع اشتداد حرارة الموقف ، كان على أن ألاحظ أن الرجل لم يترك منطقة تعسة تعيشها الأمة إلا وذكرها ، ولم يترك مجزرة عرفتھا الأمة في هذه الحقبة التى نعيشها إلا وأشار إليها ، وكان حاضر وعى الشعوب حضوراً حاداً في هذه البقعة المقدسة وفى هذا الرمن المهيّن .

كانت الصلاة هنا (= العبادة) انكباباً للتقرب إلى الله ، وكانت العبادة هنا نذيراً يشير إلى أنه مادام المسلمون يعانون ، وماداموا يعرفون أنه لا طريق للخلاص إلا بالتغيير ، والعمل ، فإن العبادة تحت على ذلك ، والتقرب إلى الله يقربنا من الخلاص فى حالة (الفتور) وربما الضعف العام الذى غر فيه ، وهو ما لم يخرج عن هذه (الحالة) التى عاش فيها هذا الإمام ووراء هذا الحشد ، وهو لم يخرج عن الآية القرآنية ، التى صاح بها فى نهاية الدعاء :

- ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون : ٥٢) .

التقوى هنا شرط من شروط الوعى بهذه الحالة ، والوعى لا بد أن يؤدى إلى الفهم ؛ فهُمْ أن العبادة شرط من شروط العمل لهذه (الأمة) الواحدة .

إنه وعى الشعوب الذى يربط بين الحس الدينى وضرورة القيام من أية عثرة ، وهو وعى - فى جميع الحالات وجميع الصور - يدعو إلى العبادة ، التى تدعو إلى الخلاص من هذه المحنة الواحدة ، وضرورة الخروج بالأمة مما هى فيه . .

ومن تجمع الملايين وغضبها نصل إلى دلالة الجغرافيا .

- كان هذا التجمع الجغرافى يشير إلى القصد نفسه ؛ إذ كانت الشعوب تتجه إلى مكان واحد لإنقاذ الأمة مما حاق بها من التخلف والتمزق والضياع فى هذا العصر .

كان من السهل أن نكتشف أن رحلات التاريخ لا تتحدث فقط عن الرحيل من أجل طلب العلم والاستفادة من العلماء فقط ، وإنما كان أهم منه - بل وقبله - هذه الرحلات التي تقوم بها الشعوب في شتى بقاع العالم - لا العلماء فقط - لأداء الحج .

كان التاريخ يحدثنا أن الحجاج - فيما مضى - كانوا يتجمعون في قوافل صغيرة ، تنمو رويداً رويداً كلما تقدم بها الطريق ، فإذا بنا أمام عدة قوافل ضخمة (للعراق حججه وللشام حججه ولأفريقيا حججه ولشعوب جنوب شرق آسيا حججه مع تنوع المناطق وتغير الطباع ، فإذا بالقوافل كلها تمضى لتلتقى في مكان واحد لأداء فريضة الحج ، والتقاء هدف واحد هو الوعي بضرورة تكاتف أصحاب هذه العقيدة للوصول إلى الخلاص من هذا الواقع الرديء ، ومن ثم ، كانت القيم الإسلامية من ضرورة التغيير والحث على العمل والدعوة بالتوحيد . . ما إلى ذلك هو ديدن هذا التجمع الضخم .

إنه تجمع واحد يقوم على العقيدة بعد اللغة في مواجهة (الآخر) سواء كان هذا الآخر يعيث فساداً في الداخل من الداخل ، أو كان يعيث فساداً في الداخل من الخارج ، وفي نهاية الأمر ، فإن الكلمة الواحدة كانت تجمع على ضرورة التوحيد في العقيدة والتوحد في العبادة بقصد التصدي لكل عوامل الفساد و (الفتور) التي تحقق بهذه الأمة .

إن الملايين تتجه من شتى أنحاء العالم إلى مكان واحد لهدف واحد .

- إن علمنا هنا يحتوى أجناساً عديدة وطوائف تدفعها العقيدة إلى قصد واحد .

كنا نتحدث عن العربى مضيفاً إليه أجناساً من كردستان وبلاد التتار وكازاكستان والترك والشركس وأفغانستان والهند والصين ، فإذا بنا نضيف إليهما الآن بشكل أكثر تمييزاً الآراميين والآشوريين والإيرانيين . . الخ .

وفي حين يلفت النظر هنا تواجد عدد هائل من جنوب شرق آسيا ، يلفت نظرنا أيضاً كثافة هذه السلالة التي تنتشر في المنطقة العربية والشرق آسيوية ، ويلفت نظرنا أيضاً السلالة الحامية - السامية بتفريعات مختلفة من الأفارقة السود في أفريقيا وعبر البحر الأحمر . .

وفى حين يلفت نظرنا تواجد القبائل الزنجية المسلمة بكثافة ، لا نفتقد أجناساً كثيرة - من أصول عربية أو غير عربية - آتية من الغرب نفسه فى أوروبا والأمريكيتين ؛ كما أشرنا . .

إننا هنا لم نلاحظ ، قط ، هذا التصنيف الظالم بالأقليات اللغوية أو الإثنية : الأكراد والسرمان والترك والآشوريين . . كما لم نستطع أن نفرق بين الطوائف غير السنية (كالشيعة الاثنا عشرية أو الشيعة الزيدية أو الشيعة الإسماعيلية والدروز أو العلويين . .) إلخ .

لقد لاحظنا قبل هذا وبعده ، هذا التوحيد اللافت أكثر لهذا التجمع القاصد إلى هدف واحد ؛ هو إنقاذ الشعوب مما تعانيه .

إنقاذ الأمة الإسلامية من عنت الغرب وأنانيته وعسفه وكيله بمكيالين . . إلخ .

رأيت - على المستوى الشخصى - أحد الرجال المتحدين فى الدور العلوى للحرم ، تشير سمته ولغته القليلة إلى غير المنطقة العربية ، يقف صامتاً لساعات وعينه لا تشيحُ عن الكعبة ، ولم أفهم من ألفاظه القليلة غير أنه غير عربى ، ولم أفهم من همسه الصامت ودموعه الدالة المستمرة غير أنه يعانى ما نعاناه جميعاً ، دون التوقف عند حواجز لغوية أو إثنية . .

إنهم ضيوف الرحمن فى (أم القرى) ينعون تشتت الأمة وتمزقها ، ومن ثم جاءوا إلى هنا . .

إن الشعوب تتجه من شتى أنحاء العالم إلى مكان واحد وهدف واحد ؛ وخلاص واحد . .

* * *

obeikandi.com

٤ - رجم الشيطان

مازلت أستعيد عشرات المشاهد التى عرفتھا ورأيتها فى منى - موسم الحج الأخير - مما لا يمكن أن ينسى قط ، هو مشهد رجم الشيطان . .

ومشهد رجم الشيطان من الملايين التى جاءت خصيصاً لرحمه ، وتحرص - أشد الحرص ، الآن - على هذا الجزء من المناسك ، لا يمكن أن يفارق ذهنى أبداً سواء بالمعنى العام له ، أو بما يثيره من رموز تتعدد إحياءاتها وتتعدد بين هذا الفهم أو ذلك .

كان السؤال الذى ألحّ علىّ هو : من هو الشيطان الذى جاءت الملايين من شتى أنحاء العالم لرحمه هنا ؟ كان الحاج لابد وأن يهبط إلى المزدلفة لأخذ الحصوات التى يحملها ويعدها عدداً دقيقاً حتى يصل إلى منى ويأخذ - على مدى أيام ثلاثة - فى رجم الشيطان بهذه الجمرات ، وهو يصيح الله أكبر . .

وقبل أن نعرض أكثر لدلالة هذا المشهد وتداعية لابد من أن نتمهل أكثر عند بعض معانى القرآن الكريم للشيطان ، فهى معانٍ ترتبط بالعقيدة فى المقام الأول ، وهى - بالتبعية - ترتبط بمعنى مجازى ، أبعد من المعنى العام . . أبعد من أن تقلّف بعدة حصاة على نصب حجرى مقام هناك لمرات عديدة وحسب . .

يحمل الشيطان معانٍ كثيرة نعرفها جميعاً ، جاءت فى الكتب السماوية وتحدد معناها أكثر فى القرآن الكريم ، والقرآن خاصة حين يتوقف عند الشيطان أكثر من مرة فإنه يشير إلى عدة سمات عند سلوكه الشيطانى أو أتباعه أو عداوته لآدم وبنيه ووسوسته ، التى لا تنتهى ، لتغير من فعل العقل البشرى من الخير إلى الشر .

ومن هنا ، يحمل الشيطان دلالة أبعد ، نشير إلى بعض عناصرها هنا بالشكل الذى يسمح لنا فيه هذا الموضوع من المقالة ، فقد تعددت آيات القرآن حول الشيطان نشير إلى بعضها :

﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ﴾ (النساء: ٧٦) .

﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ (النساء: ١١٩) .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ (المائدة: ٩١) .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (فاطر: ٦) .

﴿ اسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ (المجادلة: ١٩) .

وهذا يعنى أن الشيطان لا يذكر إلا وتذكر الكراهية والخسران والعداوة والبغضاء ونسيان ذكر الله ، ولدينا حديث يؤكد هذا المعنى ؛ حيث قال رسول الله ﷺ : « إنما جعل رمى الجمار والطواف بالبيت وبين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله » .

وهذا يعنى - ضمن ما يعنى - أن الشيطان الذى أسهم فى إخراج آدم من الجنة بشكل أو بآخر ، والذى استوجب لعنة الخالق ، هو الذى يجب أن يستوجب لعنة المخلوق ، ولعنة المخلوق تعنى القضاء عليه ، فالقضاء على الشيطان أو عدم إطاعته إنما هو العرفان بقدرة الله وتسليم لطاعته . .

والعمل هو عنصر من عناصر طاعة الله التى هى عبادته ، وطاعته ، ومن ثم ، حفظ النفس من الضلالة .

وبقدر ما تقترب من الله بقدر ما تبعد عن الشيطان ، وبقدر ما ترجم الشيطان وتبغضه ، بقدر ما تكون ذاكراً صالحاً ، ومؤدياً فروض العقيدة ، فالحج هو فريضة ، ورجم الشيطان من أهم مناسك الحج .

وقد شهدت بأُم عيني لأيام قرابة ثلاثة ملايين من البشر ، وهى تقوم بالرجم ، قرابة ثلاثة ملايين يمشون قرابة خمسة مليارات نسمة من المسلمين فى العالم ، يقفون فى مشهد ضخم ، ويرجمون الشيطان بكل قوة وحماس شديدين .

الأيدى الكثيرة من جميع الأجناس تقبض على الحجر ، بعنف ، وتبعد باليد فى نصف دائرة إلى الورا تستمد منها القوة لتعود أسرع إلى الأمام بقوة مضاعفة لتقذف الحجر ، تصحبها صيحات عالية ضد الشيطان المريد .

وهنا ترجئ المعنى الفردى إلى المعنى الجمعى . .

إنه الشيطان الذى كشف عن وجهه أكثر عقب حرب الخليج الأخيرة ، فإذا بنا فى التسعينيات أمام شمال وجنوب ، أو أمام حضارات متصارعة فى نهاية التاريخ على حد قول منظرى الغرب اليوم (هل مازلنا نذكر كتابات هتجنتون ووكاياما وبرنار لويس . . ؟) وغيرهم . .

إنه الشيطان الذى يواجه الإنسان الشرقى الآن أمام مخاطر القوى الجديدة فى السوق الرأسمالى العالمى ، فإذا بالإسلام هو (إرهاب) ، وإذا بالبحث عن الحقوق هو ارتكاب تهمة الدعوة للحرب ، وإذا بالنظرية العنصرية تصل إلى أقصاها بهذا الغرب ، الغرب الأمريكى بشكل خاص ؛ الذى يحاول الآن إرغام العدو الجديد - على حد قولهم - على الركوع . .

إنه قذف الشيطان الذى يسعى أكثر بالذبح والاحتلال والإحلال ووهم حقوق الإنسان . . ضد هذا الإنسان الشرقى الذى يتمى إلى تلك العقيدة . .

إنه خلق العدو - بعد سقوط الاتحاد السوفيتى - والهيمنة على مقدرات الشعوب وإمكاناتها .

والواقع أنه شغلتنى للحظات الربط بين قذف الشيطان بحرارة ، والشارع العربى الذى يقوم - فى كل مناسبة تستوجب القيام - بالخروج إلى الشوارع ، والصياح ضد الشيطان ، فربطت بين حجر الشيطان هنا ، وحجر (الأقصى) هناك .

ألا توجه الحجارة بيد واحدة إلى الشيطان . .

ألا توجه الجمرات (الحجارة) بيد واحدة إلى هذا الشيطان . . إن شيطان الغرب الإسرائيلى جزء منه . .

لقد خطر فى ذهنى الربط بين حجر الشيطان هنا ، ورأس هذه القوى الداخلية التى تحاول النيل من مقدراتنا فى الاقتصاد والثقافة والسياسة ، أليس كلاهما يوجهان بيد واحدة إلى الشيطان .

إنه شيطان قوى السوق ، وبعض رجال الأعمال والعملاء الموالين بشكل ما للغرب (عولمته) ، سواء من أبناء كوبنهاجن أو أبناء الديسابورا . .

ثم إنه خطر بيالى - كذلك - الربط بين حجر الشيطان هذا ، ورأس الشيطان الأكبر الذى تمثله القوى الأمريكية فى سياستها المنحازة لإسرائيل ، واستراتيجية التسعينيات ، بوجه خاص التى تقوم على قوات الانتشار السريع والضربات الوقائية والردع وسياسة القوى الجوية الخاطفة ذات التكنولوجيا المتطورة أو - حتى - تلك التهديدات النووية المتكررة ، ضدنا من دولة صغيرة أو كبيرة فى حالة الدفاع عن أنفسنا .

وقد لفت نظرى بشدة - أثناء الرجم - أن عدداً كبيراً من المثقفين والفنيين كانوا بجانبى يحملون الحجارة ليقذفوها كرمز فردى وجمعى فى آن .

وإن أنسى لا أنسى مشهد هذا الطبيب الذى كانت المعرفة زادت بينى وبينه فى الفترة القصيرة ، التى قضيتها هنا . . هذا الطبيب الذى درس فى لندن لسنوات ، والذى يتابع أحداث المجالات والاختراعات العلمية فى العالم أولاً بأول ، وهذا الطبيب الذى يقصده حشد هائل من الناس لتقدمه العمل فى مجاله ، والمشهود له بالفتنة والذكاء . . هذا الطبيب - وقد حاولت مراقبته أثناء الرجم - لحركته غير العادية - قد نسى كل شئ إلا هذه الأحجار التى يحملها ، فهو يرفع يده بعنف بردائه الأبيض ، وطاقيته البيضاء ، ويعيد اليد إلى الوراء لنصف دائرة ليدفع بها بقوة فائقة مردداً كلمات حاسمة غاضبة كثيرة ضد هذا الشيطان . .

وفى كل مرة كانت قوة الدفع تضعه فى حركة ترنج ، لا يلبث بعدها أن يستعيد توازنه ليعيد الفعل نفسه من جديد ، فيتفرض ، ويتخذ حركة الدفع ، ويلقى بأقصى قوة لديه على هذا (العمود) الأسمى الفارغ . . هنا (رمز الشيطان) فى صياح عنيف لم ينقطع حتى انتهت الجمرات .

لا يعنى هذا طبعاً أننا نغفل أول الرموز وأقربها فى عملية (الرجم) من محاولة التغلب على الذات ونوازعها ، وإنما نضيف إليها أعداء أخرى . .

إن الحديث فى ضعف الذات فقط يظل حديثاً فردياً يردد فى مجالس العلم ، وبين الخطباء من معنى عدم طاعة إبليس اللعين لله عز وجل ، فلولا فضل الله - عز وجل - لا تبعنا الشيطان ، ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء : ٨٣) . وهو ما يعنى أن فضل الله عز وجل يشير إلى أن التغلب على الذات هى أولى سمات الفضل ، فضل الله ، وطاعة المخلوق فى طاعة الخالق ، غير أنه ليكمل المعنى أكثر ، إن الخروج من الذات إلى العام (ولا فارق فى هذا الأمر الفصل بين الذات والعام) يظل من أهم ما يجب أن يحرص عليه الإنسان .

إن التغلب على الفردية إنما هى - درجة من درجات - الوعى بالذات الجماعية ، أى تبلور الأمور عبر الشعوب وما تلاقيه من تحديات اليوم .
إن الشعوب الآن تخرج لرجم الشيطان ، ولكنها جميعاً تستطيع - وهنا معنى الرجم الحقيقى - أن تحارب الشيطان وتنتصر .

وحين نقول الشعوب يصبح المثقفون والمتعلمون فى الطليعة .

ويظل المشهد العام هنا ناقصاً ، لو لم نكن واعين أكثر إلى أن مصداقية الشعوب هى مصداقية المثقفين والأحزاب والأنظمة وما يجب أن تكون عليه ، نحن فى حاجة إلى الجميع ليتغلبوا على الشيطان سواء فى الداخل والخارج .

وهنا ، فقط ، نفهم لماذا نسعى جميعاً لرجم هذا الشيطان الأكبر ، وهو مضمون الحديث القادم .

* * *

obeikandi.com

٥ - الجنة والناس

ما كاد إمام الحرم المكي ينتهى من قراءة آخر آية (من الجنة والناس) حتى بدأت تتداعى أمامى كثير من التأملات التى تثيرها مثل هذه الآية الأخيرة من السورة الأخيرة من القرآن الكريم . . فالعلاقة هنا بين الجنة (أو الشيطان أو إبليس أو العفريت . .) وبين الناس علاقة غير عادية ، أو يجب ألا تكون عادية ، فالربط بين اللفظتين ، وهو تكرار فى الكتاب الكريم أيضاً يبعث على الدهشة .

وسرعان ما تتحول الدهشة ، مع استعادة الربط بين الشيطان والإنسان ضمن مفردات - القرآن الكريم - بوجه خاص - إلى شىء من التأمل الذى يجب التوقف عنده .

- ما صور العلاقة بين الشيطان والإنسان ؟

- ثم ما الذى يجعلنا نستدعى المعنى أو نجتهد فى استدعائه والاقتراب منه ؟

أسئلة كثيرة يجب أن نجيب عنها هنا . .

الإجابة عن السؤال الأول تصل بنا إلى الإجابة عن السؤال الآخر .

* * *

إن مراجعة الآيات التى تربط بين الإنسان والشيطان تدفعنا للوقوف أمام آيتين اثنتين هنا :

- ﴿ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (الناس: ٦) .

- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (الأنعام: ١١٢) .

والربط هنا بين الجن أو الجنة والإنس أو الإنسان يستلقت النظر بشدة ، وهو ما يدفع لتقليب النظر فى عديد من الآيات التى تربط الشيطان والإنسان ، خاصة أن اسم الشيطان ومشتقاته يأتى قرابة مائة مرة فى القرآن الكريم فى حين أن هذا الربط المتوازى بين الشيطان والإنسان لا يأتى إلا مرتين اثنتين تثير الحواطر أكثر مما تريحها ، وهو ما نجده - خاصة - لدى عدد كبير من مفسرى القرآن أو دارسيه على كثرة الكتابات والاجتهادات .

وهل من الإنس شياطين ؟

هذا هو السؤال الذى طُرح طويلاً فى تراثنا العربى ، ودارت حوله اجتهادات كثيرة ؛ غير أن أغلبها رجحت هذا السؤال وإجابته .

وعبوراً فوق اجتهادات كثيرة هنا ، سوف نشير إلى أهم البواعث التى تدفع إلى الربط بين الشيطان والإنسان . . ربما كان من أهمها ما تذكره كتب السيرة ، من أن الرسول قال لأبى ذر :

(- هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن) .

قال : قلت : (- يا رسول الله وهل للإنس من شياطين) .

قال : (- نعم هم شر الشياطين) .

وفى القرطبى حوار قريب من هذا ، حين قال أبى ذر لرجل :

- هل تعوذت بالله من شياطين الإنس ؟

فقال : - أو من الإنس شياطين ؟

قال : - نعم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ

وَالْجِنِّ ﴾ (الأنعام: ١١٢) . .

ويضيف القرطبى هنا إن قومًا ذهبوا إلى أن الناس هنا يراد به الجن فيموا ناسًا ،

كما سموا رجالاً فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ

الْجِنِّ ﴾ (الجن: ٥) .

ثم تأتى اجتهادات المفسرين والمصنفين : القرطبي والترمذى وابن كثير واليسابورى والبخارى والأعمش ، ثم النسائى وأبى داود وابن ماجه ومالك وغيرهم كثير فى هذا الصدد ، وهم لا يكتفون بتأكيد أن من الإنس من هو شيطان ، وإنما يصنفون هذا الإنسان الشيطان إلى صور وأنماط عديدة نجدها فى الحياة حولنا ، كما نجدها - فى المجاز أو الواقع - بين كل هذه الكتابات القديمة منها أو المعاصرة .

إن الإنسان هنا يصبح شيطناً أو كالشيطان . .

- نحن أمام هذا الواضح المباشر فى موقفه ، الذى لا يتردد فى القيام بدوره بشكل مباشر .

- وأمام العدو ، المخادع الذى يحاول أن يلتف حول سامعه لخداعه .
- وأمام الناصح المشفق فى غيه ، فإذا كشفه سامعه وزجره تراجع .
- وهناك الذى يوسوس ولا يتوقف عن الفساد إلا بعد أن يكشف أمره .
- وهناك من يقوم بدوره ضمن حاشية السلطان حتى يحوله إلى طاغية .
- وهناك الذى يتاجر فى أقوات الناس ولا يتورع عن الإيغال فى دوره .
- وهناك الذى مارس الفساد بأشكال متعددة فى مواقف متعددة .
- وهناك الواشى الذى يزين الكلام - «ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصُّراح» .
- وهناك الذى يسرق العلم من غيره حتى إذا ما كشف لا يتورع فى رفض اتهامه .
- وهناك العدو الذى يظهر فى ثوب صديق أو قريب .
- وهناك الأكثر شراً من الجن فى الشر حتى إن الأعمش يقرأ (شياطين الجن والإنس) بتقديم الجن فى الآية الأخرى .
- وهناك صور كثيرة تحول إلى أنماط نعرفها فى العصر الحديث ، كما عرفتها البشرية فى عصورها وأزمنتها المختلفة .
- وهناك

وتتعدد الصور ولا تنتهى ، وتتحدد الدلالة فى التحليل الأخير ولا تتغير .

قال صاحبي بعد إن استمع طويلاً إلى ما أسهبت حوله :

- هذه صور العلاقة إذًا بين الشيطان والإنسان ، وحسنًا أنك نقلت لنا ما يؤكدده القرآن الكريم من أن الإنسان - إذا لم يتق الله - يوشك أن يكون شيطانًا أو كالشيطان . . حسن ، ولكن ما الذي يجعلنا نستدعي هذا المعنى الآن ؟

أجبت : انظر حولك ، أو تصفح عناوات الصحف أو المجلات أو - حتى - الكتب ، ستقرأ فيها ما حاولنا نقله هنا .

ستقرأ فيها أشياء كثيرة تستطيع إعادة تكوين هذه الصور منها .

عاد ليسأل : هل يمكن أن تمنحني بعض الأمثلة ؟ أجبت بسرعة : ألا ترى هذه الصور الجديدة ، لنقرأ معاً بعض هذه العناوات ، فى صحف الألفية الثالثة :

- إخلاء سبيل رجال الأعمال فى قضية (نواب القروض) .

- مشروع قانون لمواجهة فساد مهندسى الأحياء والمدن .

- حل جمعية خيرية أخرى تمارس الفساد .

- تعدد شركات متعددة الجنسيات بمساهمتها من الوطنيين .

- الشللية الثقافية فى الصحف والاتحادات و . .

- بعض أساتذة الجامعات المرتشين والسارقين لجهود غيرهم العلمية .

- غياب الوثائق ، وآخرها وثائق السد العالى (تصور !!) .

- ضياع « موتيفات » وأصول الأفلام المصرية (ضياع ذاكرة البلاد ، تصور !!) .

- القضايا الوهمية التى لا تقام ولا تقعد حول تحريم هذا الكتاب أو ذاك .

- الطعن فى دستورية قانون الجامعات الجديد .

- عشرات من المثقفين (المستدركون) و (القائمون) أيضاً .

هل أقول أكثر ، سألت صاحبي ، وأنا أستعيز بالله من شر الوسواس الخناس ، قد أفسدت حجتي يا صاحبي ، فقد نسيت أن أذكر لك صورة أخرى غفلت عنها ، فقال : ما هى ؟ قلت :

- هناك أيضاً صورة المستمع شديد اللجاج ، كثير الثثرة ، لا يتمتع إلى شيء إلا ويبحث معنا عن المعنى .

- قال صاحبي : ما هذه الصورة ؟

- قلت : نعود من أول المقال لنقرأ ، أو لنتذكر - معاً - صوت إمام الحرم المكي ، وهو يقرأ في اطمئنان شديد ؛ أول الآية الأخيرة في سورة الناس (*) .



(*) ولهذا علاقة بما قاله بعض السلف من أنه إذا تمكن الذكر من القلب ، فإن دنا منه الشيطان صرعه

كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان فيجتمع عليه الشياطين فيقولون :

- ما لهذا ؟

فيقال : - قد مسّه الإنس .

obeikandi.com

٦ - العودة من المدينة

دعوة إلى الناس :

مشاعر كثيرة أثارته لدى هذه الندوة .

مشاعر كثيرة أثارته هذه الندوة ، التي عقدت بمكة المكرمة ، قبل بداية شعائر الحج بأيام - بدأت شعائر الحج بالتوجه إلى مدينة منى فى التاسع من هذا الشهر . . ورغم أن الندوة عقدت تحت محور (مكة عاصمة للثقافة الإسلامية) ، فإن هذه المشاعر جاءت مزيجاً من الحزن والألم الشديدين .

أما الحزن ، فلأن مثل هذه الندوة تعقد ، وحال (الأمة) على ما هو عليه الآن (هل تضرب العراق أم لا تضرب العراق ؟) وهو سؤال لا تخرج عنه أغلب المقالات التى تكتب فى صحفنا ، وأكثر الندوات واللقاءات التى تترنى فى إذاعاتنا وفصائلتنا . .

أما الألم ، فإن الدعوة إلى مثل هذا المؤتمر ، أثرت بشكل أكثر طموحاً قبل هذا الوقت بأكثر من قرن كامل ، فنحن نذكر ، أن عبد الرحمن الكواكبي كان قد دعا إلى (جمعية) يحضر فيها جمع كبير من ولاية الأمر والعلماء من عام ١٣١٦ (١٨٩٨) فى (أم القرى) ، ومع ذلك ، لم يعقد مثل هذا المؤتمر ، أو مثل هذه الجمعية ، التى تحاول أن تنقذ ما يمكن إنقاذه من حال الأمة فى ذلك الوقت ، الذى لم نكن نعرف فيه - على مرارته - اكتمال حركات الاستعمار الغربى على المنطقة العربية - فضلاً عن الإسلامية - وما لحق بهذا من وعود وخيبات وهزائم : كوعد بلفور ونكبة ١٩٤٨ و ١٩٦١ و ١٩٦٧ و ١٩٧٠ و ١٩٨٢ و ١٩٩٠ . . إلى آخر ما نشهده الآن فى العراق .

ومنذ أثار الكواكبي ذلك ونشره فى كتاب كامل (أم القرى) حتى اليوم ، أثرت مثل هذه الدعوة كثيراً ، وبأشكال عديدة دون أن تخرج إلى حيز التنفيذ ، خاصة ، فى أصعب فترات تاريخنا قاطبة .

ولأن الحال يزيد من سوء إلى أسوأ ، فسوف نتمها عند مثل هذه الدعوات الإيجابية التي أثّرت في السنوات الأخيرة ، دون أن ننسها لها بالقدر الكافى ، وهى الدعوة التى تعثر عليها فى كتاب (الحج الفريضة الخامسة) للمفكر المعروف على شريعتى .

لقد سبق شريعتى مفكرنا الكواكبى بأكثر من قرن ، ومع ذلك ، تظل الدعوة قبل قرن أو بعد قرن محض (دعوى) إذا أحسننا الظن ، أو محض (كلام) إذا أخلنا الظن الحسن إلى ظن سوء ، غير مجد أو فاعل .

وفى جميع الحالات لا يتبقى أمامنا غير العود إلى هذه الدعوى أو تلك ، خاصة ، أنها فى العام الأخير ترتبط بتنصيب مكة المكرمة للاحتفال بالعام الثقافى لها . . فما ملامح دعوى شريعتى ؟

وما ملامح الدعوى التى نتطلع إليها فى الظلام الكثيف ؟



إن هذه الدعوى مثل (كل) الدعوات السابقة يدعى إليها فى موسم الحج . .

وهى فى موسم الحج لأنها تشهد أعداداً غفيرة من المسلمين الشكلى (بما فيهم المثقفين) ، وقد وصلت أعدادهم مثل هذا العام إلى أكثر من ثلاثة ملايين . . ثلاثة ملايين من كل أنحاء العالم ، تتساوى لديهم الشجون والأنين والفضاء القاتم السحيق . .

هنا سمعنا أنات مسلمى جنوب آسيا بالقدر الذى سمعنا فيه أنات مسلمى العراق - ومن ثم - كل الأقطار العربية بغير استثناء . . بالقدر الذى جلسنا فيه - فى الحرم وخارجه - أمام من جاء من الفلسطينيين - أو من سمح لهم بالمجىء - وهم أعداد قليلة - إلى حج هذا العام ، يجلسون فى سكون يشبه اليتيم وتخاذل يشبه الفزع . .

وقل مثل هذا عن الآتين من البلاد المتباعدة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، كلهم يعانون من الخزى (الخزى) والضعف والإذعان للصمت ، والحنين إلى شىء مجهول والبكاء والإطالة فيه والأنين والاستمرار به .

هذه صورة عرفت بها بنفسى . .

ومن هنا ، فإننى أتحدث الآن عن (الناس) وليس عن فئة بعينها . .

وهو ما لاحظته عند شريعتى ، فهو - يطيل كثيراً - فى الحديث عن الذات ، أو يخيل إلينا ذلك - ثم ينتقل فجأة - أو يخيل إلينا ذلك - إلى (الناس) ، مشيراً أو كما يلاحظ أن القرآن الكريم يبدأ باسم الله وينتهى بالناس (قل أعوذ برب الناس) ، وهى ليست مصادفة - بالقطع ليس مصادفة - وإنما هو التوجه الإلهى الذى يعكسه مناداة البشر طيلة أعماله كله بعبارة (إيها الإنسان) . .

فالإنسان ما هو إلا خليفة لله تعالى فى الأرض ، وحامل أمانته من لدن (آدم) ، ومادام هو على العهد ، سيبقى ما شاء الله أن يبقى . . فالشخص الذى لم يحيا كإنسان ، سيقى خالداً حتى ولو مات . .

لماذا ؟ يضيف شريعتى فى أغلب كتبه : لأن الواحد المفرد فان ، فى حين أنك كإنسان باق .

إن قطرة الماء « إذا لم تكن جزءاً من النهر أو لم تكن ذائبة فى البحر ، فإنها تصبح كقطرة الندى تبقى ما بقى الليل فقط ، وتتلاشى مع أنفاس الصباح الأولى » .

أيها الإنسان ! ادخل إلى النهر ، وتدقق معه ، حتى تلقى البحر وتصير خالداً . .
ويا قطرة الندى ! لماذا تقفين على الشاطئ ولا تلجين النهر ؟ !

هذه دعوى أخرى إذاً للإنسان - غير الدعوى السابقة منذ قرن للقادة وولاة الأمور إنها دعوى للناس ولرموزهم .

إنها دعوى بغير فلسفة للعمل (الجمعى) المجيد .

إنها دعوى عقيدية بشرية ، ترى فى العمل المشترك السبيل لإنقاذ الأمة والخلاص . .

إن الدعوى تشير إلى أن الإنسان ليس وحده ، أو أنه ليس وحده فى موسم الحج . . إنه مع غيره ممن هزموا الشيطان على جسر الجمرات . بالرمز ، قبل العودة إلى مكة للوداع . . إنه فرد وحده إذا ظل فرداً . .

لكنه مع وفى خدمة (الآخرين) إذا عرف أنه ليس وحده فى هذا الموسم ، الذى انتهى وشيكاً . . وهو ما يدعونا للاقتراب أكثر من هذه الدعوى .

إن العالم الإسلامي هنا يشير إلى أنه يجب الوفاء بأمرين :

- أن يأسسوا حلقة حوار علمي ونظري فيما يشبه السيمانار ؛ حيث يتاح لكل شخص أن يحضر .

- وأن يقيموا مؤتمراً عالمياً شاملاً .

إنه لا يفصل الحوار العلني (الناس) بالمؤتمر العالمي (ممثلو الناس) .

الحلقة هنا تعني (الاختيار) ولكن باسم الجموع ، والمؤتمر هو ما يمكن أن يتمخض عن هذا الاختيار ، أيضاً ، باسم الجموع .

إن الدعوى لا تكون - كما نرى من سنوات - فى قاعات وبين مؤتمرات وأبواب مغلقة ، وإنما فى الهواء الطلق . .

وبشكل مباشر فإن (هذه المؤتمرات لا يحتشد فيها رؤساء الدول ولا ممثلوهم ولا الدبلوماسيون ولا القيادات السياسية ولا أعضاء البرلمان ولا الوزراء ولا أعضاء مجلس الشيوخ ولا أساتذة الجامعات ولا العلماء ولا المفكرون ولا أئمة الدين . . كلا ! كلا !) .

وهنا تأتى الآية الكريمة لتؤكد الصورة :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾
(الحج: ٢٧) .

وهذا معناه أن القيم الوحيد ليس واحداً من البشر ، وليست لجنة رسمية أو غير رسمية وإنما يظل هو (الله تعالى الذى يجتمع الناس هنا فى ضيافته) . .

إنه تأسيس دعوى للناس ليتفرغوا - بعد الحج - إلى ما كان يجب أن يتفرغوا إليه قبل الحج ، وهو الجهاد . .

والجهاد هنا هو الوعي بالأمة الواحدة ، التى يجب أن تتعاهد على الخير بشكل (جمعى) وليس بشكل فردى ، مؤسسات نَجدها اليوم تأسست وتعمقت فى عصر (العولمة) حيث أصبحت الجماهير الإسلامية غائبة حاضرة لا تملك من مقدراتها شيئاً . .

ومناسبة الحجية هي المناسبة الآن - الذى يتواجد فيها بأجسادهم أكثر من ثلاثة ملايين وبارواحهم أكثر من مليار من هؤلاء الذين تهفو قلوبهم إلى الأرض المقدسة ، وإلى القيم التى هى - فى الأساس الأول - جاءت من أجل الناس ، قبل أن يعم (الغاسق) ، والاستعانة للخروج من هذه (الحالة) هى العود إلى الله ، والعود إلى الذات التى هى الذات (الجمعية) التى تتمثل فى مناداة الله - عز وجل - (قل أعوذ برب الناس ..) .

إنها دعوة للخروج من الفعل الفردى إلى الفعل الجماعى .

وبدهى هنا أن أكثر من مليار مسلم لن يستطيع أن يأتى هنا ، ويتحدث عبر (سيمنار) أو (مؤتمر) ، وإنما هى القوى الوحيدة التى يمنحها موسم الحج بالرمز ، الذى يذهب إلى أن القضية الآن تهم الناس .. قضية القضاء على الإنسان فى شرقنا هى التى تهم الناس ، وليس جماعة أو مؤتمراً أو زعيماً ..



والآن ، بعد الدعوة إلى مؤتمر من ولاية الأمور أو العلماء قبل قرن ، أو الدعوة إلى حوار علمى أو مؤتمر للناس بعد مائة قرن .. ماذا نحن فاعلون ؟

ماذا نحن فاعلون والعالم العربى والإسلامى يلقى هذا المصير .. ؟

و (الجمع) فى هذه المنطقة يشهد التاريخ ، الذى يكرر نفسه من القرن الخامس عشر الميلادى ، مروراً بالدولة العثمانية .. وصولاً إلى سايكس بيكو فى بداية القرن الماضى أو سايكس بيكو التى توشك على الانتهاء منها فى بداية هذا القرن ..

بيد أن هذه الدعوة كانت تحمل فى طياتها معنى آخر من الجهاد .. الجهاد الذى سبق فريضة الحج ، ويلى فريضة الإيمان بالله .. وهو ما نتمهل عنده فى هذه الفترة الصعبة من تاريخنا .



الضريضة والجهاد !!

مازلنا نلتهم مكة المكرمة . .

ومازلنا نلتهم - فى هذه الأيام الصعبة قريباً من بغداد وبعيداً عنها - نلتهم المعانى التى يطرحها موسم الحج هذا العام ، خاصة ، وأن البلاد العربية والإسلامية تتعرض لغبن وظلم شديد ، ثم أننا - وهذه فرصة أخرى - نحتفل الآن بمكة التى هى - كما نعرف - عاصمة للثقافة الإسلامية . .

ولأن الأمر لا يحتمل بحثاً عن وسيلة للعثور عليها لإنقاذ ماء الوجه (بعد أن كادت تغيب دماء الهوية) ، فإن ما يطرح هنا يجب التنبه إليه بأية شكل ؛ خاصة أن الأمة تكاد تعصف بها هذه الرياح الآتية من مانها تن ، متذرة بأى شىء للنيل منا . . وخاصة أن ما يحدث حولنا من محاولة اقتلاع القيم العقيدية يكاد يذهب بالعقول ؛ لهول ما نرى ونسمع هذه الأيام . .

ولأن الجهاد هنا يظل - ونحن نستروح كلمات الرسول - ﷺ - وسيلة من وسائل الخلاص حيث قال : « لكل دين رهبانية ، ورهبانية الإسلام الجهاد » ، كما أنه مؤكد فى حديث آخر قول رسول الله ﷺ الحديث الآتى ، الذى يشير إلى تقدم الجهاد على أى شىء آخر بعد الإيمان بالله ، وهو ما تأكد من القول النبوى .

وقد روى عن ابن مسعود فى هذا الصدد أن الرسول (ﷺ) سئل :

- أى الأعمال خير ؟

قال : « إيمان بالله ورسوله » .

قيل : ثم أى شىء ؟

قال : « الجهاد سنام العمل » .

قيل : ثم أى شىء ؟

قال : « حج مبرور » ، فالجهاد هنا قمة العمل وأهميته ، ومن ثم ، فإن تلمسه واللجوء إليه هو كل ما تبقى لمن أراد أن يحافظ على القيم الإنسانية ، التى يحيا بها فى هذا العالم .

ولأن للجهاد كل هذه القيمة ، فسوف تمهل عنده أكثر ، خاصة ، أن بعض كتابنا أو ولاتنا من الذين يعيشون بيننا أو الذين رحلوا . . عرفوا ذلك ونبهوا إليه . . وربما كان أكثر ما يحضرنا الآن - الشيخ القرضاوى فى وعيه المتوثب - ود . على شريعتى فى إيمانه المرتبط بالجهاد المقترن به .
وكلاهما نعرفهما بالتقى والوعى الشديدين .
فلتمهل أكثر عند قيمة الجهاد ، سواء جهاد الذات أو الجهاد الجمعى .

وهذه الملاحظة الأخيرة تعنى أن للجهاد درجات : الجهاد الداخلى والجهاد الخارجى . . أما الجهاد الداخلى ، فهو ما تزخر به آيات الأديان السماوية كلها سواء على مستوى الذات - النفس - أو على مستوى دفع الضرر عن المجتمع بالوعى ، بما يجب أن يتحلى به العالم (= المثقف) اليوم . .

فإذا كان علينا أن نشير إلى التوحيد كأولى ركائز أو دعائم العقيدة على أنه الفعل المتعلق بحياة الناس أو فى عبارة شريعتى « إن الذى بقى من التوحيد هو مفهوم الإله الواحد . . » وقيمة التوحيدية والوحدانية بدهية لا نريد أن نهىب حولها ؛ أما قيمة الجهاد أو مفهوم الجهاد هنا هو « ما تمت مصادرتة تماماً ، ودفن فى مقابر التاريخ » .

الأكثر من هذا أننا نستطيع أن نوافق شريعتى ؛ حين يقول إن مفهوم الجهاد حُرّف عماده المتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأصبح يعنى أن تلوم صديقاً لك! / فضاع معنى التصدى للفساد والانحراف ومظاهر الفسق فى أشخاص مرتكبيها .

وهو ما يصل بنا إلى عالم عصرنا أو « المثقف » بتعبير هذا العصر .

أو - حتى - أى فرد من الناس - بالتعبير الجليل ، الذى ورد فى القرآن الكريم (يا أيها الإنسان) . .

فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عن أفعاله ، ومن ثم ، مسئول عن مدى إدراكه للأمور ، فإذا كان هذا الإنسان تتوافر فيه سمات الخلق الطبيعية ، ووهب من علامات الوعى والفهم ما شاء الله - عز وجل - ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ (الأحزاب: ٧٢) .

فالأمانة هنا المسؤولية والتكاليف التي أقبل عليها الإنسان ، ومن ثم ، تتوزع المسؤولية في هذه الأرض على الإنسان بشكل عام ، وإن خص منها في بعض الأحيان العلماء والمثقفين . .

ومن هنا ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - في رأينا - لا تتوقف عن الداعية وحسب ، وإنما تمتد المساحات البعيدة إلى الإنسان ، الذي حمل الأمانة بوعى وإرادة كاملتين . .

وعلى هذا النحو ، فإن الدعوة هنا تكون للإنسان بالمعنى العام ، وليس لفرد دون آخر ، وإن كانت التكاليف تصبح أكثر لدى العلماء والمثقفين في عصرنا ، فإذا وعى الإنسان إلى مسؤوليته بالقدر الكافى وسعى للتغيير من منطلق (الأمانة) ، فإنه يكون قد أدى واجبه ، بل يكون قد انطلق من معنى التوحيد انطلاقاً حميداً إلى معنى الجهاد انطلاقاً واعياً . . وهو ما يشير إلى أن المسؤولية تقع على كامل وعى المفكر المتجرد ، الذى يشعر بمدى أهمية الأمانة ، ومدى هذه المسؤولية على عاتقه . .

وهو ما يتحقق - ونحن مازلنا فى مناخ الأراضى المقدسة - حين يصبح الإنسان الفرد هو المجموع فى حد ذاته ، ويتحول المجموع الإسلامى إلى فرد أو إنسان يعى قدر المسؤولية التى تقع على عاتقه .

وعلى هذا النحو ، فإن الاقتراب من الله إبان أداء فريضة الحج أو بعدها يعنى الاقتراب من الوعى بالمسؤولية التى تناط بصاحبها . .

وهو ما يعود بنا إلى المعنى الحقيقى للجهاد ، وهو ، أن تكون واعياً لدورك ، وأن تعى تماماً أن الجهاد ينطلق من جهاد الذات ، خاصة ، الجهاد الأكبر الذى أشار إليه الرسول - ﷺ - حين عاد من الجهاد مع الأعداء ، فراح يخبر من معه : أننا عدنا إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس . وهو ما يترجم معنى معاصراً جداً . . هو أنه بقدر ما يكون الإنسان مجاهداً مع نفسه ، بقدر ما يكون مجاهداً مع الناس أو للناس . وهو ما يفهم معه قول الرسول - ﷺ - الذى سبق وأن أشرنا إليه ليشير إلى المعاناة التى يبادر بها الإنسان الواعى السوى من أن « لكل دين رهبانية ، ورهبانية الإسلام الجهاد » . وهو

ما يجاوز بنا الجهاد من المعنى الفردى - أمام الكعبة - على سبيل المثال - إلى المعنى الجمعى - فى الحياة بوجه خاص . .

وفى جميع الحالات ، فإن الجهاد هنا يقتصر - وقد خرجنا من فريضة الحج وشيكًا- ومازال يرتبط عندنا بالخروج من (منى) ؛ هذا الخروج الذى اقترن برجم الشيطان وهزيمته ، ومن ثم ، بدء حياة جديدة لا تكون فيها قد فرغت منه - أى الشيطان - وإنما تنبّهت أكثر له . .



وعلى هذا النحو ، فإن مجرد الرجم فى جسر الجمرات لا ينهى القضية ، وإنما يمتد الصراع إلى ما بعد ذلك .

إن قهر الشيطان هنا ينتقل بنا إلى الوعى بمحاولة قهره فى كل مكان . . ويسهم فى إعادة الشيطان إغوائه لك .

ولشريعتى هنا تعبيرات رقيقة واعية فى التنبه لهذا الشيطان ، الذى تمت هزيمته فى (منى) ، فيجب بعد أن تهزم هذا الشيطان هناك . . لا تلق بسلاحك من يدك ، لقد قهرت الشيطان حتى أخرجته من بابك ، ولكنه قد يعود من النافذة ؛ لقد هزم فى خارجك لكنه قد يستيقظ فى داخلك . . لقد صرع فى الحرب ، ولكنه قد يستحوذ على السلطة فى السلم / لقد هلك فى منى . . لكنه قد يبعث فيك . .

وعلى هذا النحو ، فإن مغادرة هذا الجسر لا يعنى مغادرة الشيطان أبدًا . .

إنه هزم فى منى ، ولكنه لم يهزم فى داخلك فى أى مكان . .

هزم فى منى ، ولكنه لم يهزم فى عديد من الأقطار العربية ، التى لا تتكاتف الآن لهزيمة العدوان الإسرائيلى والأمريكى ، الذى ينصب شبابه على المنطقة كلها .

هزم فى الجبال البعيدة التى كنت فيها ، ولكنه مازال مستيقظًا فى صورة العملاء داخل أرض فلسطين .

هزم هناك ، ولكنه لم يهزم هنا بعد . .

وعلى هذا النحو ، فإن (الحالة) التى عاد بها الحاج من هناك لا تعنى اليقين بالقضاء على الشيطان ، ولكنها تعنى (الشعور) بوجود الشيطان دائمًا ، وإن كنت هزيمته فى مكان ما . .

إن يوم العاشر من ذى الحجة لا يحسم قضية الخلاص ، وإنما يبدأ قضية مواصلة التنبه إلى أن الشيطان لا بد وأن يأتيك ، وهو ما يغرينا بالعود هنا إلى شريعتي مرة أخرى ، الذى يحذرنا من العود وقد تجاهلنا الخطر ، وقد استغرقنا فى العبادة أو الاستعداد للعودة إلى ديارنا لنستأنف أعمالنا وحسب . . إنه يخاطب أيّا منا فيقول : أنت / يا جندي الإيمان السائر على درب إبراهيم ، لا تنس أن العاشر من ذى الحجة هو (عيد الفدا) وليس (عيد النصر) بعد نجاح (الثورة) يا جنود التوحيد لا تلقوا بأسلحتكم جانباً ، ولا تستغرقوا فى نشوة النصر أكثر مما يجب / إن هناك خطراً داهماً من الجيش المهزوم / لقد أطيح بالأصنام الثلاثة ، ولكن الأصنام الثلاثة ضاربها أطناها فى (منى) / بعد العيد ينبغى أن تحتفظ بروح البطولة ، وتظل مستعداً للقتال فى أى وقت . .

وعلى هذا النحو ، فإن الخطر الأكبر بدأ بمجرد عودتنا من هناك ، والخطر القائم يتيقظ أكثر ليحاول القضاء على حيويتنا وحریتنا فى الدفاع عن وجودنا ذاته ؛ فالمهم هنا ألا يتصور الإنسان أنه عاد بعد أن قضى على الشيطان .

الشيطان هناك على مستوى الرمز .

والشيطان هنا على مستوى الواقع ؛ سواء أكان خطراً داخلياً (مجاهدة النفس أو خطراً خارجياً بكل ما يحيط بنا من أعداء على المدى القريب أو البعيد - مكانياً وزمانياً - وهنا يبدأ الفهم الواعى لمعنى الجهاد .

إنه الجهاد المستمر دائماً ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦) . .

وعلى هذا النحو ، فإن العودة من المدينة تزيدينا وعياً بالمخاطر فى داخلنا وحولنا . . وهو ما يفسر لنا الدعوة إلى إقامة (مؤتمر عالمى شامل) يكون الإنسان - بآدميته - مثولاً سواء على المستوى الفردى - كإنسان - أو الجمعى - كأمة - وفى جميع الحالات يكون الإنسان هو المسئول بهذه (الأمانة) ، التى حملها ، ولا بد من الوفاء للعمل بها ولها .

وليس (صدام حين فقط) إنهم يهاجمون الشعوب ، ويرددون ما يجد آذاناً صاغية لهم فى الغرب ، أو تعلق أصواتهم فى أوقات بعينها متكرين عمليات الاستشهاد ، التى يقوم بها بعض الفلسطينيين كرد فعل للهدم والتفجير والجرفات والدبابات والطائرات ، التى تقوم كل يوم بل كل ساعة بقتل أهلنا فى فلسطين وإذلالهم ، والأرقام التى تنشرها الجهات المحايدة عن قتل الأطفال الفلسطينيين فقط (والتمثيل بجثثهم) تفزع حقاً !!

هل نقول يا مثقفى العرب اتحدوا ؟ وهل هؤلاء من المثقفين حقاً ؟ وهل ... ؟

obeikandi.com

٧ - الوداع

وبعد ، كان علينا بعد أن أتمنا الرمي الأخير ، رمى الجمرات ، أن نعود أدرأجنا
فى اليوم نفسه من جسر الجمرات .

عدت من الرمي الأخير ، وزاد الوقت الذى عدت فيه هذه المرة ، إذ قطعت
الطريق متمهلاً متأملاً ؛ فهذه هى المرة الأخيرة التى أعود فيها من الرمي لنفسى
ولزوجتى .

كان الطريق الطويل الكثيف من الحجاج والبائعين وكان المناخ العام ؛ يمنح العائد
للمرة الأخيرة أو الثالثة إحساساً عاماً يسيطر عليه .

وأعترف أن تمهلئ ، أثناء العودة ، كان بإيعاز ذاتى خالص للتأمل فى هذا الهول ،
الذى أراه الآن وسط ثلاثة ملايين ، وهم يغذون الخطو - يرددون المناسك نفسها
ويشعرون بالطاقة الروحية نفسها وإن تكن بدرجات . وهو ما يدفع إلى العود إلى ما
بدأت به .

* * *

أعترف هنا ، أننى وإن كانت عواطفى ومشاعرى خضعت تماماً لهذه الزيارة ، فإن
عقلئ كان متنبهاً أشد التنبه والوعئ لدى كان فى أقصاه ، بحيث أنه لم تمر شاردة أو
واردة ألا وكنت ملاحظاً لها ومتأملاً فيها . . والطريق الطويل من جسر الجمرات إلى
مكان الإقامة يمكن أن يكون - مع الملاحظة والتأمل الشديدين - موضوعاً أو أكثر من
موضوع ، لتباين الأجناس وتباين الدرجات الاجتماعية وتباين الأنواع النفسية وتباين
الأحداث المأساوية التى يعيشها عالمنا الإسلامئ ، ثم هذه العربات التى تمر من آن
لآخر ، وتتبع الإدارة الأميرية بالماء البارد .

غير أن طريق العودة لم يستطع أن يمنحني الأمان الروحي وحب .
 لم أستطع أن أخلص من إشارات أو دلالات هبطت على رأسي طيلة أيام
 الزيارة . . كالعاصفة . . إشارات ودلالات ، لم أستطع أن أخلص من ثقلها على
 وجداني ، وها أنا أتمها عند أقلها القليل . .

ومن تلك الدلالة التي يتذكرها المرء ، ولا بد أن يتذكرها حين يصل إلى المسجد
 الحرام ، ويبدأ في الذهاب عنه . . هذه الرحلة ، ودلالاتها ، التي ذكرها القرآن الكريم
 في أول سورة الإسراء التي قال فيها الله - عز وجل - :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
 بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

وأكثر ما يلاحظ هنا أن الآية ربطت بين مبدأ الإسراء ومنتهاه (المسجد الحرام
 والمسجد الأقصى) لحكمة ، وجدناها تتأكد كثيراً في التاريخ من العلاقة الحميمة
 والدالة بين المسجدين ، والدلالة الأكبر التي نجدها في الشعور واللاشعور الملم
 بضرورة ، بل بطبيعة العلاقة الوثيقة بين المسجدين ، فمن يفرط في أحدهما يفرط في
 الآخر . .

وربما كان أكثر ما لفت نظري ودهشتي الشديدة علامات (العولة) أو - بشكل
 أدق - (الأمركة) التي وجدتها في الأراضى المقدسة بشكل فاق خيالي .

صحيح أنني كنت أجد بنكاً هولندياً أو / وإسبانياً هنا وهنا ، غير أن العلامات
 والرموز الأمريكية كانت من العنف والثقل على وجداني ، حتى أنني لم أستطع أن
 أخفي دهشتي ، فحدثت زوجتي التي أثرت في كثير من الأحيان الصمت أو الانصراف
 إلى (الحالة) الروحية التي تعيش فيها . .

في الطريق من جدة إلى مكة - على سبيل المثال - روعت حين قرأت في الطريق
 ولمرات متعددة هذه الكلمة (أمريكا) ، والتي أعقبتها عبارة (الاسم الأول في عالم
 اللحوم) ، وجاورها في عدد من المرات عبارة (معرض فرنسا إير . .) .

وبينما لفت نظري مرة أخرى (البنك السعودي - الهولندي) فى الطريق إلى الحرم المكى ، فقد تجددت دهشتى أكثر حين وجدت أكثر من محل (ماكدونالدز) فى هذا الطريق ، وهو يظهر من آن لآخر ، مع حركة العربى المتجهة إلى الحرم ، حتى أننى لم أفتقد قبل الحرم بعدة أمتار فقط . .

لم أستطع أن أفهم ذلك أول الأمر ، لكننى تيقنت - بعد انقشاع الغيمة - أن العم سام تسلل إلى هنا أيضاً ، نعلم جيداً أنه تسلل إلى المملكة منذ أول القرن بشكل عملى ، وإن لم يكن قبل ذلك عبر الرحلات ، غير أنه يتواجد الآن عبر رموز العولة وآلياتها المتناثرة والمكثفة هنا وهناك فى نهايات القرن العشرين ، فإن هذا لم يكن فى العقل الباطن أو الظاهر بأية حال . .

الأكثر من هذا كله ، أننى وأنا متوجه إلى مكة عن طريق البر ، لم أتنبه إلى ما يحيط بالحرم .

وكان ما صدمنى هذه المرة يفوق توقعى . .

فقد كانت وجهتى ، حين أجيء إلى الحرم - يحول بينى وبين أن ألم بما حوله أو يكون من أهدافى تفحص ما حوله ، وإنما هبطت بسرعة من أحد الأبواب الرئيسة إلى (طواف القدوم) لأطوف مرات سبعة ، ثم أقوم بصلاة ركعتين بمقام إبراهيم وأنا مستغرق فى الدعاء مذبذباً فى هذا اللقاء ، صاعداً للصفا لأقوم بالأشواط السبعة بين الصفا والمروة حتى إذا انتهيت من شرب ماء زمزم ، وهممت بالترجل من أبواب الحرم إلى الخارج ، حتى أفاجئ بما لم يمر بخاطرى أبداً . .

بمجرد أن تركت المسجد الحرام حتى فوجئت قبالتى مباشرة محلاً ضخماً مكتوباً عليه (كنتاكي) . . المحلات والمطعم هو هو . . الهيئة التى أعرف بها الوجهة الأمريكية فى العواصم العربية والغربية . . لكنه يأخذ إبهاراً وسمتاً أكثر من أى محل رأيته بعد ذلك ، إننى فى باريس وجدت (الكنتاكي) ، لكننى حتى فى باريس لم أجد كل هذه الأبهة أمام المسجد الحرام . .

لم أستطع أن أخرج من دهشتى لوقت طويل . .

ماذا أرى ، اقتربت أكثر ، قرأت (يافطة ضخمة) مزينة بالعربية والإنجليزية هذه العبارات التي حرصت أن أدونها فى ورق :

- وجبة الحج والعمرة Haig & Omra Meals .

- دجاج كنتاكي .

- دجاج الحج والعمرة .

لم يمنع أن أقرأ فى المنطقة أيضاً عبارات من مثل :

(كل بيتزاهت) .

لم أتنقل كثيراً حتى عادت اليافطة الضخمة أمامى ، أو عدت إليها :

- وجبات الحج والعمرة Haig & Omra Meals .

والغريب ، أو قل الطبيعى - وليصدقنى القارئ الكريم - لم أعد أعرف هل أخفى دهشتى أو أظهرها حين وجدت أن أعداداً ضخمة جداً ، أغلبها عائلات يلتهمن ما يقدم إليهن من هذه الأكلات المعروفة فى المطعم الأمريكى - الكمونى .

وجدت فى منى - فيما بعد - ما ذكرنى بذلك ، فقد رأيت فى قلب المخيمات سفارة تحمل العلم الأمريكى ، وفيه كلمة Malaysia وهلال ونجمة . . وعرفت فيما بعد أنه مكتب أو سفارة ، ترتبط بأمريكا ارتباطاً جعلها تستعير علمها ليصبح علمها ، وأشهد أن ذلك كان غريباً أشد الغرابة بالنسبة إلى .

* * *

وبعد ، هل يغفر لى القارئ الكريم أننى لم أستطع أن أخلص تماماً للزيارة ، بسماتها الروحية ، وإنما غرقت دون أن أدري فى واقع العالم الإسلامى الرديء بعد أربعة عشر قرناً على الهجرة النبوية . .

أخلص البعض للزيارة الروحية . .

وأخلصت أنا أيضاً - فيما جهدت - لكننى ؛ مع ذلك ؛ لم أستطع أن أغلق عينائى عن مشاهد المليودراما ، التى يعيش فيها كثير من مسلمى اليوم أو الأغلبية التى تعاني الكثير والكثير فى عالم يعرف الحضارة الغربية (حضارة العنف) ، وبلاد الله

وعباداه الذين وقعوا تحت نطع هذا العالم الغربى ، الأوروبى أو الأمريكى (*) بعنف
ترفضه العقيدة السححة والعدل الإلهى .

وكان آخر عهدنا من مناسك الحج أن عدنا من فى هذا الطريق الذى
طلما قطعناه فى الأيام الأولى ، فقد ظللنا لأيام ، نتنقل من جدة إلى مكة بطرقنا
الخاصة .

عدنا قزب الصباح إلى الفندق الذى كنا نعيش فيه لأيام ، قبل أن نتنقل من
القنصلية المصرية إلى المسجد الحرام لنبدأ مناسك الحج الأخيرة .

هبطنا قرب انبلاج الصباح أمام الفندق ، وذهبنا لنأخذ حاجاتنا .

كان اليوم يوم الثلاثاء الذى هو يوم ١١ ذو الحجة ١٤٢١ (٦ مارس ٢٠٠١) .

وتأهبنا لتحملنا العربة بعد قليل إلى مطار جدة الدولى . .

اللهم تقبل واغفر لى ، وسامحنى . .

والحمد لله رب العالمين .

(*) لم يمض وقت طويل حتى عرفنا (اعتداء ١١ سبتمبر) كما أطلق على عاصفة مانهاتن ، وما لبث
العالم الأمريكى والمتحالف معه أن دمروا أفغانستان ولم يمض طويل وقت حتى سقطت بغداد . .
وتداعت بقية العواصم العربية والإسلامية . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . .
